ASJP
Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد: 06، العدد: 02 (2021) ص: 245 - 255

صورة العرب والمسلمين عند المستشرق ألفونس إتيان دينييه

The image of Arabs and Muslims for the Orientalist Alphonse-Etienne Dinier

أ.د. علي بولنوار
المدرسة العليا للأساتذة، بوسعادة - الجزائر -
alibousaada2020@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الإرسال:
2021 / 05 / 16
تاريخ القبول:
2021 / 06 / 03

الكلمات المفتاحية:
✓ العرب، المسلمون
✓ المستشرقون، الفكر
✓ النهضة
✓ الحضارة العربية الإسلامية

الملخص:

يهدف المقال إلى إبراز صورة العرب والمسلمين من خلال كتابات المستشرقين. كيف يتصرف العرب والمسلمون ، كيف يعيشون، كيف يفكرون، وما هي طبيعة معتقداتهم، وما هي أبرز السمات التي تتصف بها شخصيتهم ؟ لا أعتقد أني أبالغ إذا قلت بأن صورة العربي أو المسلم في الأعمال الأدبية، وغير الأدبية للكتاب المستشرقين، جاءت غير مشرفة. فرغم ما توصل إليه الفرد العربي أو المسلم من قفزة نوعية تعكس تقدمه الحضاري ونضجه الفكري، إلا أن هناك من المستشرقين من يصر على إبراز شخصية الفرد العربي في صور سلبية دنيئة، فهم أهل جهل وتخلف وفشل وذل وانهزام، ومردّ ذلك طبعا لما يحملونه في أعماقهم من مشاعر الكره والحقد للعرب وللمسلمين. فالشخصية العربية ـ عند هؤلاء ـ عدوانية بالغريزة، تميل إلى الصراع والإرهاب والخراب، وتعود هذه العدوانية للإسلام الذي نادى بسمو المسلمين على غيرهم، بالإضافة إلى أنه دين نزعة تخريبية، فهو مجرد مجموعة أوامر ونواهي، للحد أن الذي ليس لديه معرفة بحقيقة الإسلام، من أنه يحمل رسالة حضارية وإنسانية كاملة سوف يخرج بانطباع أن هذا الدين لا يتجاوز كونه دينا ذا ـقوس صارمة يمكن حصره في ثنائية الحلال والحرام . كما ترى هذه الفئة بأن الشخصية العربية، تعاني من أزمة هوية وانتماء حضاري، ولّدت لديها شعورا بالإحباط. وباختصار فالشخصية العربية، تمتاز بالعدوانية والانفعالية. في حين وصفت الشخصية الأوربية بالعقلانية وبالاتزان والواقعية. ورغم ذلك فقد لمسنا مواقف عند القلة القليلة من المستشرقين من أنصفوا العرب والمسلمين ، بحيث أعطوهم حقهم، وأنزلوهم المنزلة التي يستحقونها بالفعل، من هؤلاء المستشرق الفرنسي ألفونس إتيان دينييه، المولود بباريس سنة 1861، والمتوفى سنة 1929.

Article info

Received
16/05/2021
Accepted
03/06/2021

Keywords:
✓ *Arabs, muslims*
✓ *Orientalists, thought*
✓ *Renaissance,*
✓ *Arab-Islamic ivilization*

Abstract :

The following article tends to unveil the image of the Muslims and Arabs so far shown through the Orientalists' writings; the way they behave,live, think, and the nature of their beliefs, and what aspects characterize their personality. I dare say that orientalists did not honourably introduce the Arab or Muslim personality, whether in their literary or non literary works. Despite their progress and intellectual maturity, some orientalists insist on presenting the Arab and Muslim personality with a negative and humiliating image; an illiterate, a reactionary, a failed, and a primitive population. All that is due to a prejudice related and a feeling of hatered towards the Arab and Muslim persona judged as being violent and aggressive determined to be destructive and terrorist. Orientalists go beyond such limits to account for the causes that they relate to Islam, as it endoctrined its fellowers with a feeling of supremacy. Their religion as they describe is a one of a destructive tendency, a sum of orders and prohibitions. In contrast the Western personality as highly rationalist, realist and moderate. However, few orientalists were just and did offer the Arab and Muslim a position they deserve, amongst Alfonse Etienne Dinet, born in Paris in 1929

المتتبع للأحداث يجد الواقع السياسي والاجتماعي قد أفرز وما يزال يفرز مشاكل سياسية وإحباطات اجتماعية واغترابات نفسية، وهذا من شأنه أن يلون العالم تلوينات متباينة مختلفة في الأفكار والأهداف، لا تتفق مع روح العصر الذي نسعى إلى تحقيقه. ومع كل أسف فإننا نلمس في بعض الحركات الدينية – باعتبارها حركات سياسية وأحزاب انقلابية – كثيرا من العنف والإرهاب فكرا وممارسة، في الوقت الذي نريد لها أن تكون، حركات نهضوية تهدف إلى أسلمة الواقع، من منطلق أنها عملية سوسيولوجية تتعامل مع نصوص دينية مقدسة، تسعى إلى تغيير الواقع الاجتماعي والنهوض به عن طريق الحوار والتفاهم، لا العنف ولا الإرهاب. ولذلك، فمهما تغيرت الصورة أو اختلفت وتعاطف بعض المفكرين والمستشرقين المخلصين، خصوصا بعد أن تعرف الغرب على عناصر الحضارة العربية والإسلامية، وعلى مؤلفات العلماء والفلاسفة المسلمين في الطب والفلسفة والفلك والرياضيات وغيرها، وبعد أن أصبحت كلمة فيلسوف مرادفة لكلمة مسلم وظهور الإسلام كبنية سياسية ذات أبعاد إيديولوجية، فقد بقيت الصورة محكومة باديولوجية معادية تقوم على مصالح، وأهداف، وتتخذ من العرب والمسلمين مواقف متذبذبة، تبعا لمصالحها، وأهدافها الإستراتيجية. وإذا كانت صورة العربي المسلم في القرون الماضية عدوا كافرا، فإنها أصبحت اليوم أصوليا إرهابيا وخاصة بعد تنامي الحركات الإسلامية في الجزائر ومصر وغيرهما.

يتساءل المستشرق الألماني فيشر عن العلاقة التي تربط أوربا بالعالم الإسلامي، وأسباب الالتباس وسوء الفهم والرؤية المتحيزة التي يحملها بعض المستشرقين عن الإسلام؟ ويري بأن الحضارة العربية الإسلامية قدمت الشئ الكثير لأوربا والعالم منذ القرون الوسطى، وسعت جاهدة مثل أوربا، إلى نشر الفكر العلمي الحر ومبادئ العدالة والتسامح. وإذا كان هذاهو الواقع، فلماذا يضع الغرب فيتو على الإسلام؟ (يوسف، الأطرش. د.ت. ص. 25.) وكما هو معروف فإن وسائل الإعلام العربية ما زالت تخلط اليوم – بوعي ودون وعي – بين حركة إسلامية ذات وعي جديد يريد تغيير العالم الموروث لقرون عديدة من القمع والجهل والاستبداد وإنتاج موقف جديد معاد للامبريالية والتبعية والاستغلال، وبين حركة عنف وإرهاب مسلح، لا تقتصر على العالم الإسلامي ولا على الأديان التوحيدية الكبرى. في حين تركز وسائل الإعلام الغربية على إظهار الإسلام في صورة ضيقة تختزله في شكل أوامر ونواهي (افعل هذا ولا تفعل ذاك، هذا حرام وذاك حلال، وهذا محظور وذاك مباح إلى الحد أن القارئ الغربي الذي لا يعرف حقيقة الإسلام بوصفه دينا يحمل رسالة حضارية وإنسانية كاملة سوف يخرج بانطباع مفاده أن الإسلام لا يتجاوز كونه دينا ذا طقوس صارمة يمكن اختصاره في ثنائية الحلال/ الحرام أو الطقوس/ الشعائر، دون الإشارة إلى الجوانب الحضارية والمدنية وعمارة الأرض التي أمر بها الإسلام، مع دعوته كذلك إلى الالتزام بالواجبات الدينية والأمن والسلام. هذه الظاهرة بشكل عام تجعل بحثنا يتوسع ويتشعب، لذلك ارتأيت أنه من المفيد أن أحصر بحثي في الفنان المبدع المستشرق الفونس إتيان ديني الملقب بناصر الدين ديني، الذي أتخذ له مقاما محمودا في بلاد الجزائر، في تلك الواحة الهادئة الجميلة "بوسعادة" ينتقل إليه ويسكنه نصف العام كاملا، يرتاح للعرب ولجيرتهم، ويروح عن نفسه بينهم، وينعم بما في حياتهم من خلال تلك المناقب المأثورة عنهم، وتلك المكارم المعروفة بهم، والتي لا يميل إليها إلا عشاق الخيال السامي، ولا ينشدها إلا أهل الفضائل العليا وقد وضع في حياة العرب كتابا جميلا جليلا ملأه باللوحات البديعة من ريشته القادرة ذات البلاغة في تصويرها، والبيان في صحتها. "والمسيو "دينية" يبلغ من العمر سبعين عاما، وهو من كبار آهل الفن ورجال التصوير وصاحب اللوحات الكبيرة النفيسة القيمة، تزدان بها جدران المعارض الفنية وتحتفظ بها المتاحف الفرنسية الكبيرة وغيرها من متاحف العالم، وله في متحف (لوكسمبرج) – وهو متحف كبار المصورين العصريين بباريس – وعدة صور، منها الصورة الشهيرة المعروفة لاسم: (غداة رمضان) وكذلك له صورة في متحف (بو) وكذلك في متحف (سدني) باستراليا، وغير ذلك كثير. (ناصر الدين ألفونس إتيان دينييه وسليمان بن إبراهيم باعمر. 2006. تر. عبد النبي ذاكر، ص، 1). بحق إننا هنا أمام رجل أحب العرب وانتصر للمسلمين، وذلك في عز المد الكولونيالي الفرنسي، وأرّخ مشاعر المحبة والإخاء والإنسانية السامية في رحلة حجازية في مطلع القرن الماضي. فقد درس دينييه الروح العربية وفهمها الفهم الصحيح، حتى قيل

عنه: إنه المصور الفريد بين إخوانه الذي يستطيع تمثيلها بالريشة والألوان والأصباغ أحسن تمثيل، وهم يقولون عنه إنه المصور العربي مستنكرا في الوقت ذاته نظرة الغرب للشرق والتي تصور الشرق على أنه واحة للتخلف وتابع من توابع الحضارة الغربية ولعل أهم كتبه تعبيرا عن هذا التوجه كتاب "الشرق كما يراه الغرب".

لم يكتف دينييه بالتصدي ومواجهة الأباطيل، وإنما سعى بفكره العميق ونظرته الثاقبة إلى تعريف الغرب خاصة بالدين الإسلامي، وفي هذا الصدد كتب مع رفيقه وصديقه الجزائري "سليمان بن إبراهيم" مجلدا كبيرا والمعروف بـ "حياة مُحَمَّد" تأريخا لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم معتمدا في ذلك على السير المعتبرة كسيرة "إبن هشام" وسيرة "إبن سعد" متخذا في ذلك منهجا مخالفا عن ذلك المنهج الذي طبع كتابات المستشرقين، معبرا عنه في كتابه بقوله "فبحكم المستحيل أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة، وهم بذلك حرفوا سيرة النبي وصحبه، وقدموا عنهم صورًا خيالية أبعد ما تكون عن الحقيقة..."(المرجع السابق، ص، 25)، وما ميز هذا الكتاب جرأة ناصر الدين في نقده للمستشرقين وموضوعيته في تبيان تناقضهم بعد استشهاده بنماذج من كتاباتهم عن الإسلام ونبي الإسلام خاصة ؛ مبيننا المنهج السليم الذي كان عليهم الكتابة وفقه قائلا "إذ إن دارس سيرة الرسول لا بد له من أن يتجرد عن الهوى والعصبية، وأن يعتمد على الأخبار الصحيحة التي رواها المسلمون أول عهدهم بالتدوين، وأن يدرس البيئة العربية في مهدها الأصلي حتى ينجلي له الغامض، ويتضح له" (المرجع نفسه، ص،51) وبالرغم من أن الجزائر قد كرمت دينييه بإطلاق اسمه على بعض الساحات والمدارس وأهمها إطلاقها اسم "نصر الدين دينيه" على المتحف الوطني الملاصق لبيته وإصدارها مجلدا قيما فخما يليق بالفنان وبمسيرته يضم أهم لوحات الفنان ومقتطفات من سيرته وكتاباته إلا أنه للأسف لا يزال مجهولا في الذاكرة الجزائرية والعربية والإسلامية ؛ ومن هنا تأتي محاولتنا لتسليط الضوء على هذا المفكر الجليل، الفنان المستشرق الذي أخلص للعرب وللمسلمين.

ومن الصور الدالة على مدى حبه للعرب والمسلمين أنه وصفهم بالشجاعة، يقول: "ويقول القسيس لامانس (لبناني) متخما العرب بعدم الشجاعة: زعموا أن العربي يتسم بالشجاعة، بل لقد عللوا النجاح في الفتوحات الإسلامية الأولى بما يمتاز به العربي من صفات ومزايا، ولكنني أتردد كل التردد في قبول هذا الرأي المبالغ فيه كل المبالغة... إن شجاعة العرب إنما هي من نوع غير سام. والرد على القسيس اللبناني بسيط، ويكفي أن نسدي إليه هذه النصيحة، وهي أن يقرأ آلاف الشهادات التي نالها من قيادة جيوش الحلفاء الجنود المسلمون الشجعان، الذين حاربوا دفاعا عما اعتقدوه حقا، فكانوا من عوامل النصر في الحرب الكبرى" (المرجع نفسه). ويقول أيضا: "ففي أقل من مائة عام، ورغم قلة عددهم، استطاع العرب الأمجاد، وقد اندفعوا، لأول مرة في تاريخهم خارج حدود جزيرتهم المحرومة من مواهب النعم، أن يستولوا على أغلب بقاع العالم المتحضر القديم: من الهند إلى الأندلس" (المرجع نفسه، ص، 75). وهذه الشجاعة دفعت ببعض القادة العالميين، أن يكسبوا العرب والمسلمين إلى صفهم للاستفادة من خدماتهم، يقول دينييه في هذا الموضوع: "وقد شغلت، في قوة هذه القصة المجيدة تفكير أعظم عباقرة عصرنا هذا، أعني نابليون، الذي كان ينظر دائما إلى الإسلام باهتمام ومودة، فيقول عن نفسه في إحدى خطبه المشورة بمصر: إنه مسلم موحد، ويذكر الإسلام في أواخر أيامه، فيرى أنه، إذا طرحنا جانبا الظروف العرضية التي تأتي بالعجائب، فلا بد أن يكون في نشأة الإسلام سر لا نعلمه، وأن هناك علة أولى مجهولة جعلت الإسلام ينتصر بشكل عجيب على المسيحية وربما كانت العلة الأولى المجهولة: إن هؤلاء القوم الذين وثبوا فجأة من أعماق الصحاري قد صهرتهم، قبل ذلك، حروب داخلية عنيفة طويلة، تكونت خلالها أخلاق قوية ومواهب عبقرية وحماس لا يقهر، أو ربما كانت هذه العلة شيئا آخر من هذا القبيل... ولذلك كان نابليون يعلم، أن وراء خمول العالم الإسلامي، في فترة الانحطاط، خزائن لا مثيل لها من القوة الفعالة الكامنة، فحاول، في مناسبات متعددة أن يستميل المسلمين إلى جانبه ببعض المعاهدات. وكان يؤمن بأنه إذا وفق في ذلك يستطيع أن يوقظ الإسلام من سباته، وأن يغير بمعونته وجه الأرض قاطبة" (ناصر الدين ألفونس إتيان دينييه وسليمان بن إبراهيم باعمر. د.ت. تر. عبد الحليم محمود، مُحَمَّد عبد

الحليم. ص، 335-336). وكما هم العرب شجعان هم أيضا آهل ود وكرم وصبر، "أما اليوم فقد استقبلنا هؤلاء البدو بود كبير، وأرشدونا بلطف إلى طريق السيارات المحاد للبحر بعيدا غرب الممر" (ناصر الدين ألفونس إتيان دينييه وسليمان بن إبراهيم باعمر. 2006. تر. عبد النبي ذاكر، ص، 28). وفي الكرم يقول: "وعند خروجنا انتصب بدوي أمامنا ليقدم لنا إبريق شاي قد حضره، فتقبلناه القبول الحسن بعد ليلة صوم وإرهاق... أفادنا بمعلومات عن الطريق، لم يعد هناك ما نخشاه من سبخات..." (المرجع نفسه، ص،30). وفي الصبر يقول: "ومهما كانت المشقة، فقد استحيينا من تبرمنا، حين صادفنا قوافل الحجيج الطويلة على الجمال، وهي تقطع هذه الطريق في أحد عشر يوما أو أكثر، والأجل من ذلك أننا كنا نمر بمواكب الراجلين، يحملون أمتعتهم على رؤوسهم، قاطعين مسافة أربع مائة كيلو متر في الهجير، محققين إنجازا في الجلد، لن يقوى عليه المتسابقون الأولمبيون، لان الإيمان يعوزهم" (المرجع نفسه، ص،52).

ومن الصور الدالة على حبه للعرب والمسلمين أنه بعض المفاهيم الخاطئة في العبادة عند المسلمين، من ذلك تقبيل الحجر الأسود. ففي الوقت الذي ذهب فيه العديد من المستشرقين يصفون موقف المسلمين من تقبيل الحجر الأسود أنه جزء من آثار الوثنية، يرى دينييه أنها مواقف بعيدة كل البعد عن الوثنية:ومع ذلك، نقر بأن بعض العامة من الحجاج، يذهب توقيرهم للحجر الأسود إلى درجة تقربهم من ارتكاب البدع. لكن ما يميز – أساسا – سلوك هؤلاء الحجاج عن سلوك الوثنيين الفعليين أمام أوثانهم، هو أنهم لا يتوجهون إطلاقا بالدعاء إلى الحجر الأسود، إنهم لا يعبدون إلا الله وحده حين يقبلونه وهم يشهقون ندما عما اقترفوه من آثام" (المرجع نفسه، ص،62). ولكي يقوي فكرته يستشهد برأي مُحَمَّد البنتوني صاحب كتاب الرحلة الحجازية الذي يقول: "إن الحجر الأسود موضوع توقير لدى المسلمين. لكن فقط باعتباره رمزا للقوة الربانية، ولذالك يستلمه المسلمون ويقبلونه، باحترام وتشريف، وهو في هذا شبيه بالعلم الوطني، الذي لا يشرف باعتباره قطعة قماش مثبتة على قطعة خشب، وإنما باعتباره رمزا للبلاد وسلطتها. ولهذا السبب يكن له الجنود الطاعة الشديدة والحماس" (مُحَمَّد البنتوني. د.ت. ص،132). ويصحح دينييه أيضا فكرة خاطئة أعطاها المستشرق بورطون، عن نظافة منى، يقول: "خلافا لمل حكاه بورطون، لم نشتم أي رائحة نتنة خلال الأيام الثلاثة التي قضيناها بمنى... تمر سيارات المبيدات المطهرة على الطرقات، وبمنى مستشفى له خدمات إسعاف منظمة جدا" (ناصر الدين ألفونس إتيان دينييه وسليمان بن إبراهيم باعمر. 2006. تر. عبد النبي ذاكر، ص، 94). الحقيقة إن الصور الدالة على مدى حبه للعرب وللمسلمين، وإخلاصه لهم كثيرة، سنحاول فيما يأتي ذكر جزء منها، إضافة إلى ما ذكرناه:

يرى دينييه أن العديد من الدارسين الغربيين يرون بأن اللغة العربية ميتة، ولا يمكن أن تنتج حضارة راقية محترمة، في حين يجد هو العكس هو الصحيح، فهي لغة حية بشكل مذهل، لغة تمتاز بالحيوية والانتشار، وحتى يبرهن على ذلك نجده ويقدم لنا أكثر من شاهد، يقول: "انتشرت عادة مستهجنة عند بعض الدارسين تقديم اللغة العربية الفصحى باعتبارها لغة ميتة، ولا يفهمها ثلاثة أرباع العرب. أما العربية المتكلم بها، فيعتبرونها حطاما للهجات العامية، لا صلة بينها، وهي منذورة للموات في أجل قريب هي الأخرى. يكفي أن يذهب المرء إلى الشرق أو مصر أو سورية ليرى الدليل على أن العربية التي أريد لها أن تقبر قبل الأوان، إنما هي على العكس من ذلك لغة حية بشكل مذهل، في صحفها العديدة، إنها حية إلى حد أن الأوربيين المقيمين بهذه البلاد يجدون أنفسهم مجبرين على تعلمها حتى لا تتعثر مشاريعهم" (المرجع نفسه، ص،109). وفي مكة المكرمة، نلمس أشد الدلائل على حيوية اللغة العربية، ذلك أن سكانها يتحدثون اللغة العربية الفصحى، ومع ذلك فجل القادمين من العرب والعجم، لا يجدون مشكلة في التفاهم معهم، يقول: "لكن في مكة نعثر على أشد الدلائل قوة على هذه الحيوية. إن أهلها يتكلمون العربية الفصحى تقريبا، ويفهمها كل العرب القادمين من مختلف الأصقاع. ألاف الحجاج العجم لهم شغف كبير هم أيضا بدراسة اللغة العربية لقراءة القرآن وتدبره. وأغلبهم لا ينطقها جيدا لكنهم يكلمونها بشكل

صحيح للغاية. وهكذا استطعنا التحادث دون صعوبة تذكر مع الجاويين والهنود والإيرانيين والخراسانيين والبوسنيين والأتراك والألبانيين والقوقازيين والسودانيين، الخ" (المرجع نفسه). ومن دلائل حيوية اللغة العربية التي يقدمها دينييه، أنها الوحيدة من بين اللغات القديمة التي لا تزال حية: "دراسة هذه اللغة الرائعة لها أهمية خاصة، لأنها الوحيدة، من بين اللغات القديمة، التي ما تزال حية. فلو بعث الله أحد معاصري الرسول (ص)، لما وجد صعوبة في التواصل، داخل البلاد الناطقة باللغة العربية. في حين أن معاصرا للقيصر، سيكون عليه أن يتحدث مع بعض الأساتذة فقط، بل ومن غير المؤكد أن يتفاهم معهم بشكل تام. كما أن معاصرا لفرانسوا الأول، سيجد عنتا في تواصله مع فرنسيي اليوم" (المرجع نفسه). وفي الأخير يتوجه بالنصح إلى فرنسا كي تهتم باللغة العربية وأن تدرجها في المؤسسات التعليمية كلغة حية، "بالنسبة لفرنسا، على وجه الخصوص، لدراسة اللغة العربية أهمية لا جدال فيها، تفوق أهمية دراسة اليونانية واللاتينية، وتعادل دراسة الإنجليزية والألمانية، ينبغي تدريسها في كل ثانويات فرنسا والجزائر وتونس والمغرب" (المرجع نفسه، ص، 113). وحبه الصادق للعرب لم يظهر فقط في إظهار أهمية اللغة العربية وحيويتها، بل جعله ينتقد مواقف بعض المستشرقين الذين كانت لهم مواقف سلبية من هذه اللغة التي يريدون قتلها، يقول: "يوجد اليوم فريق من المستشرقين لا يتولون دراسة اللسان العربي والدين الإسلامي إلا بهدف التشويه والتحقير" (ناصر الدين ألفونس إتيان دينييه وسليمان بن إبراهيم باعمر. 2006. تر. عبد النبي ذاكر، ص، 110). ويقول أيضا: "هناك هجمة أخرر أشد خطرا أطلقها حديثا بعض المستشرقين، إعلانهم الحرب على الخط العربي، متذرعين بالعناية التي يولونها للجنس العربي، راغبين في اهتدائه الحروف اللاتينية بدعوى أنها عملية أكثر. وقد سعدنا بملاحظة موجة الاستنكار التي أثارتها هذه الفكرة في الشرق. لكننا ندعو أصدقاء كل ما هو جميل، دون تمييز في الجنس أوالدين، للاستهزاء بهؤلاء المستشرقين، الذين من فرط حقدهم على القرآن الملهم لفن الخط العربي البديع، يبنو ا هذا المشروع المنتهك للحرمات" (المرجع نفسه، ص،109).

لقد كانت صرخته قوية للعالم كي يقفوا ضد هؤلاء الحاقدين، صرخة فيها الكثير من الحب والصدق والإخلاص للعرب، يقول: "يا عشاق الجمال، هبوا – مثل المسلمين – والعنوا المتربصين بكتابة لها هذا الجمال، عازمين على استبدالها بالحروف اللاتينية الباردة، في الوقت الذي ضجر منها الذوق الأوروبي، ويا للغرابة، بإدخال إجراءات مستوحاة من الخط العربي" (ناصر الدين ألفونس إتيان دينييه وسليمان بن إبراهيم باعمر. د.ت. تر. عبد الحليم محمود، مُحَمَّد عبد الحليم. ص، 338). بعد ذلك يتوجه بالحديث إلى الأدب العربي ويقدمه على أساس أنه، أدب جميل يحوي كنوزا عظيمة، "من بين الآداب العظمى كلها، يعد الأدب العربي هو الأقل ذيوعا، نظرا لأنه الأصعب من حيث الترجمة، والنماذج المترجمة المتوفرة، في عمومها، تخلو من الدقة، ويعتريها تسطيح يرثى له. ولكي تفهم وتفهم، يتوجب على المترجم أن يكون ليس فقط عالما مستعربا، بل شاعرا أيضا تمرس طويلا بالحياة العربية والإسلامية. وسيستكشف هذا الأخير كنوزا مجهولة، ذات جمال منقطع النظير، وذات فرادة (المرجع نفسه). ومن أهمية اللغة العربية يذهب دينييه للحديث عن جمال وسحر الخط العربي. مبينا كيف أن العرب قد استغلوه بطريقة جميلة ، وقدموه للعالم بهندسة رائعة، تثير الكثير من السحر والجمال، يقول: "والأسلوب المعماري العربي نجد طابعه العبقري المبتكر، في أنه دائما يسترشد بفن جديد نشأ مع الإسلام، فن لم يكن له مثيل في الفنون السابقة وكان تحقيقا ماديا لمثل العرب العليا، إذا صح هذا التعبير، ذلك هو فن الزخرفة الخطية الذي استخدم لتمجيد كلام الله، أي آيات القرآن. إن هذا الفن الخطي العربي، حتى في حالة اقتصاره على وسائله الخاصة وحدها، لهو من فروع الفنون الزخرفية التي تمخضت عنها مخيلة الإنسان، ولعله الفن الأوحد الذي نقول عنه دون مغالاة: إن له روحا، فهو كصوت الإنسان يعبر عما في النفس من أفكار. وهو لا يستوحي العالم الخارجي – مهما بلغ ذلك العالم من التنظيم والتنميق – في شيء، وهو بذلك ينتسب إلى الموسيقى، ويبدوا وكأنه رمز لمعان تجيش في أعماق القلوب" (المرجع نفسه، ص، 33).

ونتيجة جمال الخط العربي وسحره، اتخذته بعض الأقوام مثلا لها في فنونها "لقد خضعت لسيطرته – سيطرة الزخرفة الخطية العربية – وسلطانه قبة بيزنطة الكروية الثقيلة، فاتخذت هيئة أشبه ما تكون بهيئة الخوذة العربية، وتحولت انحناءات رواقها الذي لم يكن فيه شيء من العبقرية، إلى أشكال عربية بالغة الروعة، بنما اتخذت الطوابي الوضيعة صور المآذن الأنيقة التي ترتفع إلى قسم التجلي" (المرجع نفسه، ص، 339). ويظهر حبه الشديد للعرب وللمسلمين، أنه يقدم أكثر من دليل على مدى تفوق العرب في ميادين عديدة، من ذلك فن الأرابيسك، "وأخيرا، فإن النظام الزخرفي الوحيد الذي يشابه الزخرفة الخطية العربية في كونه لا يستوحي الطبيعة، وهو الزخرفة الهندسية – ذلك الفن الذي لم يستطع الإغريق واللاتينيون استخدامه إلا في أشكال ضئيلة لا روح فيها – قد دبت فيه بين أيدي العرب حياة جديدة حقا، وقد أطلق على هذا الفن الزخرفي منذ ذلك الحين اسم له دلالته، أرابيسك. وراح يتأسى بفن الزخرفة الخطية العربية، في البحث عن أعجب ما يبهر الفكر من أشكال عبقرية يحار العقل في تشابكها الذي لا نهاية له، وفي تحولاتها المفاجئة. يا لها من آيات غاليات خلفها لنا الفن الإسلامي، إن الهواة الغربيين يتنازعون اليوم آثار هذا الفن غير مبالين بما ينفقونه في سبيلها، وهم يأملون من وراء ذلك أن تدخل معها في بيوتهم المظلمة بعض انعكاسات الأحلام التي استوحاها الفنانون العرب. إنه لمجد الإسلام، يتغنى به في هذه الديار ما نشهده فيها من تحف تبلغ الغاية من الدقة والجمال والإشراق. وإنا لنرى الذوق الغربي يتجه الآن إلى اقتناء آيات فن الخط العربي الذي – بنقله لكلام الله – ينفخ روحا قوية في زخارف المصاحف أو صدف الآنية. والغربيون في ذلك يترسمون خطى الأمراء العرب أيام عصر الإسلام الذهبي حيث كانوا، في سبيل الحصول على صحيفة مخطوطة بقلم أحد الخطاطين المشهورين، يبذلون مجهودان جنونية نستطيع مقارنتها بتلك التي تبذل في أيامنا هذه، لاقتناء تحف فن التصوير" (المرجع نفسه). ومن دلائل حب المستشرق دينييه للعرب وللمسلمين أنه يتوجه للعالم بتذكيرهم فضل هؤلاء على شعوب أوربا يوم كانت تغط في سبات عميق، من الجهل والتخلف، مبينا في الوقت ذاته التاريخ المجيد للعرب وأنهم أهل سبق في الإبداع، وفي شتى ألوان المعرفة، وإن كان العرب الآن قد تخلفوا ، وأوربا قد تقدمت ، فليس هذا معناه أن الجنس العربي أو أن المسلمين أهل جهل كما يريد بعض المستشرقين. من أهل المكر والخداع ـ إظهاره.

فأوربا قد تأثرت بالعرب أكثر من تأثرها بالإغريق، ولكي يقوي رأيه ويثبته نجده يستشهد برأي المفكرين الأوربيين الذين يقرون هذه الحقيقة، ويعلنونها دون خجل، يقول: "لقد أدهشت كل تلك العجائب عقول أهل أوربا، حتى في أعنف أيام عدائهم للإسلام. لقد نقلوا كثيرا من العرب في ميدان الزخرفة والمعمار. ولا شك أن دراسة أكثر عمقا لهذا الموضوع، من شأنها أن تبرهن على أن أوربا قد تأثرت بالفنون العربية أكثر مما تأثرت بالفنون الإغريقية واللاتينية، ولكن مثل هذه الدراسة قد تبعدنا عن الغرض الأساس من هذا الكتاب. ونكتفي هنا – على سبيل التلميح – بالإشارة إلى المؤرخ، دولور، الذي يقول إن مهندسي العرب قد عملوا في بناء كنيسة نوتردام بباريس. أما في ميدان العلوم، فان أثر المسلمين لم يكن أقل خصبا، ولا نرى من وسيلة لتوضيح هذا أفضل من نقل رأي الدكتور، جوستاف لوبون في ذلك، ونجده يقول في كتابه القيم، حضارة العرب، ويعزى إلى بيكون، على العموم، أنه أول من أقام التجربة والملاحظة، اللتين هما أساس المناهج العلمية الحديثة، مقام الأستاذ. ولكنه يجب أن نعترف، قبل كل شيء، بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم. ويقول العلامة الشهير، همبولد، بعد أن يذكر أن ما قام على التجربة والملاحظة هو أرفع درجة في العلوم: إن العرب ارتقوا في علومهم إلى هذه الدرجة التي كان يجهلها القدماء تقريبا" (المرجع نفسه، ص،41-42). ودون شك أن تفوق العرب في العديد من العلوم، جعل دينييه، يكن لهم كل الاحترام والتقدير، فلقد تفوق العرب في، الرياضيات، وفي الفلك، والاكتشاف، والكيمياء، وعلوم الطب، والجراحة، وفي هذا يقول: "وكانت دراسة العلوم الرياضية من الدراسات الذائعة لديهم، وقد تقدم علم الجبر بفضلهم، حتى قيل إنهم مخترعوه. ولقد كان لهم قصب السبق في تطبيق الجبر على الهندسة، وهم الذين أدخلوا التماس في حساب المثلثات. وكان علم الفلك يدرس في حماس في مدارس بغداد ودمشق وسمرقند والقاهرة وفاس وطليطلة وقرطبة وغيرها...، تلك المدارس التي وصلت إلى اكتشافات

عديدة يمكن إيجازها في القائمة التالية: إدخال التماس في الحسابات الفلكية، ووضع جداول لحركة الكواكب، وتحديد سمت الشمس تحديدا دقيقا وتدرجه وتقدير تقدم الاعتدال، تقديرا صحيحا، وأول تحديد صحيح لمدة السنة. ثم إننا مدينون لهم أيضا بإثبات ما في أكبر خط عرض للقمر من ضروب عدم الانتظام، واكتشاف عدم التساوي القمري الثالث العبر عنه اليوم بالتغيير.

وكان النصيب الذي أسهم به هؤلاء الرواد الذين يمتازون بالجرأة والإقدام نصيبا ضخما: فمن الناحية العلمية كانت لهم هذه التحديدات الفلكية الصادقة التي هي أول أساس للخرائط، كما عملوا على تصحيح الأخطاء ن الفاحشة التي وقع فيها الإغريق. أما من ناحية كشف بقاع العالم المجهولة فقد نشروا رسائل في الرحلات تعرف الناس بأقطار العالم المختلفة التي كانت شبه مجهولة من قبل، والتي لم يسبق للأوربيين ارتيادها. وإننا نجد في خريطة من خرائط الإدريسي ترجع إلى عام 1160م ،منابع النيل بين البحيرات الاستوائية الكبرى مرسومة رسما دقيقا، وهي تلك المنابع التي لم يكشفها الأوربيون إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وسجل مستكشفاتهم في ميدان العلوم الطبيعية أعظم من ذلك. والبيان التالي يوضح أهمية هذه المكتشفات معلومات عالية في نظريات علم الطبيعة، وخاصة فيما يتعلق بالمسائل الضوئية – اختراع أجهزة آلية من أبدع ما يكون – اكتشاف أعلق الأجسام بأصل علم الكيمياء، مثل الكحول والحامض الكبريتي، وأهم العمليات الأساسية في هذا العلم، كالتقطير – تطبيق الكيمياء في ميداني الصيدلة والصناعات، وخاصة فيما يتعلق باستخراج المعادن وصناعة الفولاذ، والصباغة وغير ذلك – صناعة الورق من الخرق، والاستعاضة به عن ورق الغزال وورق البردي والحرير الصيني – ومن المحتمل أنهم أول من استخدم البوصلة في الملاحة، ومن المحقق أنهم أدخلوا هذا الاختراع الأساسي في أوربا – وأخيرا، فهم قد اكتشفوا الأسلحة النارية. وفي عام 1205م، استخدم الأمير يعقوب المدفعية في حصار مدينة المهدية، وفي عام 1273م استخدمها السلطان أبو سيف في حصار مدينة سجلماسة. وقد حضر كونت دربي سالسبري الانجليزيان في حصار مدينة الجزيرة التي دافع عنها العرب فشاهدوا نتائج استخدام البارود، فنقلا ذلك الاختراع إلى بلادهم فاستخدمه الانجليز في معركة كريس بعد ذلك بأربع سنوات. وأما فيما يتعلق بالطب، فقد استوحى العرب، أولا، كتب الإغريق، ثم ساروا بهذا الفن خطوات هامة إلى الأمام. وتكاد تكون سائر المعارف الطبية في أوربا، خلال عصر النهضة، مأخوذة عن العرب' وأهم ما حققه العرب في ميدان الطب يتعلق بالجراحة ووصف الأمراض، وبالأدوية وبالصيدلة. وقد ابتكروا وسائل علاجية متعددة، ظهر يعظها في العالم الطبي حديثا بعد أن قضت عليها قرون من النسيان، مثال ذلك استخدام الماء البارد للطب للحمى التيفودية. والطب مدين لهم بكثير من المواد الطبية مثل خيار الشنبر والسنى مكي والراوند والتمر هندي والكافور والكحول والقلي، وغير ذلك... وإننا مدينون لهم بكثير من المستحضرات المستعملة اليوم، مثل الأشربة وصنوف اللعوق والمراهم والأدهان والماء المقطر وغير ذلك ...

وكذلك الجراحة، كان للعرب الفضل في تقدمها الأول: فكانت مؤلفاتهم هي المراجع الأساسية التي تدرس بالمعاهد الطبية إلى عهد قريب جدا. لقد كانوا . في القرن الحادي عشر الميلادي – يعرفون علاج الماء الذي ينصب في العين (الكاتاركتا) بالتحويل أو استخراج البلورية، ويعرفون كيفية تفتيت الحصاة، وعلاج النزيف بصب الماء البارد، كما كانت لهم خبرة باستخدام الكاويات والأحزمة والكي بالنار لتطهير الجراح. وإن التخدير الذي يظن الناس أنه اكتشاف حديث يبدوا آن العرب لم يجهلوه، فقد كانوا يوصون باستعمال نبات الزوان – قبل العمليات المؤلمة – لتنويم المريض حتى يفقد العي والحساسية.

وكانت لهم أيضا ثقة عظمى في الوسائل الصحية لعلاج الإمراض، وكانوا يعتمدون كثيرا على القوى الطبيعية. والطب النظري الذي يبدو اليوم وكأنه الكلمة الأخيرة للعلم الحديث، يوافق هذه الفكرة في استدلالاته.." (المرجع نفسه، ص،343). هذه إذا مجمل المعارف العملية التي تفوق فيها العرب، وهي معارف تبين مدى امتلاك العرب للحضارة العالمية زمنا طويلا، وتعكس في الوقت ذاته، سخط المستشرقين الحاقدين، الذين يريدون طمس الحضارة العربية، ومن ثمة تشويه العرب، والتشكيك في قدراتهم الإبداعية. ولم يكن تأثير العرب

مقتصرا على العلوم التي ذكرها دينييه آنفا، بل تعدى تأثيرهم ذلك، ليشمل أيضا ميدان تحرير الفكر الذي لطالما نادت به بعض الدول الأوربية. وفي هذا الشأن يقول: "ولعل أثر المسلمين في ميدان الفكر كان أخطر شأنا، فقد دعا عيسى إلى المساواة والأخوة، أما مُحَمَّد فوفق إلى تحقيق المساواة والأخوة بين المؤمنين أثناء حياته. وإنه يكون من الحمق أن نزعم أن الإسلام أثر، مباشرة، في خطط الثورة الفرنسية التي كان رجالها معظم ما قام به مُحَمَّد في سبيل المساواة بين الناس، ولكننا نستطيع أن نبرهن على أن المحاولات الأولى في السعي إلى تحرير الفكر، كانت أثرا منطقيا للمبادئ التي جاء بها مُحَمَّد: فإلى الفيلسوف المسلم ابن رشد – الذي عاش في اسبانيا من سنة 1120 إلى سنة 1198م – يرجع الفضل في إدخال حرية الرأي "التي يجب أن لا نخلط بينها وبين الإلحاد) في أوربا. وقد عارض ابن رشد وحدة الوجود القديمة والتجسيم المسيحي بعقيدة الإيمان بالله وحده في الإسلام، وتحمس أحرار الفكر في العصر الوسيط الأوربي لشروحه لأرسطو، وإن كانت هذه الشروح مصبوغة بصبغة إسلامية قوية. ويمكن أن نعتبر – بحق – إن التيار الفكري الذي نشأ عن هذا التحمس لابن رشد كان أصل التفكير المنطقي الحديث، فضلا عن كونه من أصول الإصلاح الديني" (المرجع نفسه، ص،344). وكما كان التأثير في الفكر كان أيضا في الأخلاق. يقول دينييه: "ولم يكن أثر الأخلاق الإسلامية بأقل من ذلك شأنا في أوربا، فقد كان العرب يمتازون إلى جانب روح التسامح الديني بأخلاق الفروسية القوية، وفي ذلك يقول الكاتب الكبير، بلاسكوإيبانيز في قصته، في ظل الكنيسة، لقد نشأت روح الفروسية بين عرب إسبانيا. وأخذها عنهم فيما بعدن أهل الشمال زاعمين أنها طبيعة من طبائع الأمم المسيحية. ولنذكر في هذا الصدد مرة أخرى ملاحظات الدكتور جوستاف لوبون، إذ يقول: لقد كانت للفروسية العربية أصولها، كما للفروسية المسيحية التي جاءت بعدها، فلم يكن المرء فارسا إلا إذا تحلى بالخصال العشر التالية: الصلاح، والكرامة، ورقة الشمائل، والقريحة الشعرية، والفصاحة، والقوة، والمهارة في ركوب الخيل، والقدرة على استعمال السيف والرمح والنشاب... وقد حاصر والي قرطبة، في سنة 1139م، مدينة طليطلة التي كانت بيد النصارى، فأرسلت إليه الملكة بيرانجير رسولا يبلغه أنه ليس من مروءة فارس كريم رقيق الشمائل أن يحارب امرأة فارتد القائد العربي من فوره، ولم يطلب مقابل ذلك سوى أن يشرف بتحية الملكة... وسجلات تاريخ العرب بإسبانيا حافلة بمثل هذه النوادر التي تبين كيف كانت أخلاق الفروسية هذه ذائعة بينهم. ويعترف عالم قوي الإيمان هو بارتليمي سانت هيلير، في صدق وصراحة، بما تدين به الأخلاق الأوربية للعرب، إذ يقول في كتابه عن القرآن :عندما اتصل الأوربيون بالعرب واقتدوا بهم، لانت العوائد الخشنة لدى أشراف القرون الوسطى القساة، وتطلع أهل الفروسية – دون أن يفقدوا لذلك طبائع الشجاعة والنخوة – إلى عواطف أرق من عواطفهم وأشرف وأليق بالإنسانية. ومن المشكوك فيه أن تكون المسيحية، مهما بلغت تعاليمها من السمو، هي وحدها التي أوحت إليهم بكل هذا" (المرجع نفسه، ص،365). هكذا يكون الحب والإخلاص، حق، وجرأة، وعدل. إنها بحق شهادات حية، وصور تبين وبكل شفافية موقف مستشرق، تعكس الصورة الحية للعرب وللمسلمين، التي لطالما شوهها الغرب.

إن سعي دينييه لإظهار العرب والمسلمين في صورة صحيحة دفع به أن يدخل في مواجهة مع المستشرقين كاشفا زيفهم، مظهرا بطلان إدعاءاتهم، فهو عندما كتب عن سيرة مُحَمَّد (ﷺ) لم يعتمد كتابات المستشرقين واعتمد السيرة القديمة، وهذا سبب له الكثير من الإحراج فقد تناوله النقاد بالنقد، بل ورأوا بأن كتاباته غير علمية وليست دقيقة بما فيه الكفاية فرد هو ورأى "بأنه فعل ذلك متعمدا، فقد كتب السيرة معتمدا على المنقول من الأخبار الإسلامية الصحيحة، ولكنه فعل ذلك بعد أن قرأ ما كتبه المستشرقون عن سيرة الرسول فوجد أنه لا يساوي شروى نقير. لقد رأى أنه من المتعذر، إن لم يكن من المستحيل، أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم ومن بيئتهم، ونزعاتهم المختلفة، وأنه لذلك قد بلغ تحريفهم لسيرة النبي والصحابة مبلغا يخشى على صورتهم الحقيقية، من شدة التحريف فيها، ورغم ما يزعمون من أتباعهم لأساليب النقد الحديثة، ولقوانين البحث العلمي الجاد. فإننا نلمس من خلال كتاباتهم: مُحَمَّدا يتحدث بلهجة ألمانية ، إذا كان المؤلف ألمانيا، و مُحَمَّدا يتحدث بلهجة إيطالية، إذا كان الكاتب إيطاليا، وهكذا تتغير صورة بتغير جنسية الكاتب، وإذا بحثنا في هذه

السير عن الصورة الصحيحة فإنا لا نكاد نجد لها من أثر. إن المستشرقين يقدمون إلينا صورا خيالية، هي أبعد ما تكون عن الحقيقة...، هؤلاء يصورون أشخاصا من أبناء قومهم...، فصورهم حسب منطقهم الغربي ن وخيالهم العصري. فلو كانت أبحاثهم علمية صحيحة، لما اختلفت ولما تعارضت ولما كان مصيرها التلاشي" (المرجع نفسه، ص، 45). ويضيف قائلا: "إن الصرح الذي شيده المستشرقون في سيرة الرسول إنما هو صرح من الورق قد أقيم على شفا جرف هار، والسبب في ذلك واضح. ذلك أن المستشرقين لم يتبعوا الخطة المثلى فيما ينبغي أن يعتمدوا عليه في السيرة النبوية. إن كاتب السيرة النبوية يجب عليه أولا: أن يتجرد عن الشهوة والهوى والعصبية، ويبدأ في دراسة الموضوع نافضا عن رأسه كل ما أوحته إليه الكنيسة من أباطيل عن الإسلام، وكل ما غرسته في نفسه من ترهات خاصة بمؤسس الدين الإسلامي...وإذا لم يفعل ذلك سيكون لا محالة وهما وباطلا. ويجب عليه ثانيا: أن يعتمد على الأخبار الصحيحةالتي رواها المسلمون أول عهدهم بالتدوين. ويجب عليه ثالثا: أن يدرس البيئة العربية في مهدها الأصلي" (المرجع نفسه، ص، 48).

والشيء الذي امتاز به دينييه، أنه عندما يجد كاتبا من الكتاب الغربيين ينصف العرب والمسلمين يذكره، من ذلك ما قاله في حق المبشر، زويمر، وفي هذا يقول: "وإليك مانتهى إليه تأمل المبشر، س. و. زويمر، الذي اضطر للاعتراف بالحقيقة التاريخية رغم عدائه للإسلام: حوالي سنة 570 ولدت أمينة طفلا اسمه مُحَمَّدا، ولم يمر قرن من الزمان، حتى بدأ سم هذا العربي مقرونا باسم الله العظيم، يتردد من أعلا عشرة آلاف مئذنة خمس مرات في اليوم من الخليج الفارسي إلى المحيط الأطلسي، في قارات ثلاث، فكنس هذا الدين الجديد كل شئ أمامه. فإلى أي شئ مرد هذا النجاح المنقطع النظير؟ لا شك أن مرده إلى أسباب عديدة... لكن، لا شئ من هذه النظريات مجتمعة أو متفرقة بمقدورها أن تنسينا أن العامل الحاسم في هذا النجاح الباهر هي عبقرية مُحَمَّد... إنها القيمة التي لا جدال فيها، لتجربته الدينية، وتمكنه من الإقناع بالتي هي أحسن، وتحمسه للمتواصل، وكرم طبعه، واقتداره في تأليف القلوب حوله، ومؤهلاته في التنظيم ومحاربة الشرك، مواهبه السياسية الفريدة" (س. و. زويمر، ص، 39). ونحن نذكر آراء المفكرين في النبي مُحَمَّد (ص) لابأس أن نذكر رأيين لمفكرين غربيين يعدان من أعمدة الفكر والثقافة عند الغرب: جورج بيرنار، شو، ولامارتين. قال الأول: "دائما ما أخذت دين مُحَمَّد مأخذ إجلال كبير، نظرا للحيوية الكبيرة لهذا الدين. إنه الدين الوحيد الذي يبدو لي له القدرة على استيعاب تجدد الحياة على مر العصور. لقد درست هذا الرجل العظيم، وهو في رأي أبعد ما يكون عن عدو المسيحية، بل ينبغي أن نطلق عليه اسم: منقذ البشرية. اعتقد أن رجلا مثله يأخذ على عاتقه ديكتاتورية العالم الحديث، سيحالفه النجاح في حل المشاكل بطريقة تفضي إلى لسلام والسعادة، وما أشد الحاجة إليهما. لقد بدأت أوربا تفتتن بعقيدة مُحَمَّد، وخلال القرن المقبل، سيزداد اعترافها بأهمية هذه العقيدة في حل مشاكله" (ناصر الدين ألفونس إتيان دينييه وسليمان بن إبراهيم باعمر. 2006. تر. عبد النبي ذاكر، ص، 56). وقال الكاتب الشهير لامارتين: "لا يوجد امرؤ قدم – عن قصد أو عن غير قصد – هدفا أكثر سموا، أما وأن هذا الهدف كان فوق طاقة البشر: تبديد الخرافات القائمة بين المخلوق وخالقه، ردّ الله إلى الإنسان والإنسان إلى الله، إعادة الفكرة العقلانية والقدسية للربوبية في هذا العماء من الآلهة المادية والمشوهة للوثنية... ولا أحد استطاع إنجاز تطور عظيم دائم في العالم في هذا الظرف الوجيز، لأنه في اقل من قرنين على التبشير بهذا الدين الجديد والحض عليه وحماية بيضته، أصبح يسود شبه الجزيرة العربية وبلاد فارس وخراسان والعراق والهند الغربية وسورية ومصر والحبشة، وكل العالم المعروف جنوب إفريقيا، والعديد من جزر حوض المتوسط، والأندلس وجزء من بلاد الغال. إذا كان جلال الهدف، وضالة الوسائل، وضخامة النتيجة، هي المقاييس الثلاثة لعبقرية الإنسان، فمن يجرؤ على المقارنة، إنسانيا، بين رجل عظيم في العصر الحديث ومُحَمَّد؟ فالمشاهير لم يحركوا سوى الأسلحة والقوانين والإمبراطوريات، ولم يؤسسوا – إن أسسوا شيئا – سوى قوى مادية، اندحرت قبلهم في الغالب. أما هذا الأخير، فقد جيش الجيوش والشرائع والإمبراطوريات والشعوب والأسر الحاكمة وملايين البشر في الثلث المعمور من البسيطة، لكنه حرك، على الأخص الأفكار والمعتقدات والنفوس. لقد أسس على كتاب، كل حرف من حروفه أصبح شرعة، أمة روحية

تشمل سد شعوبا من مختلف اللغات والأجناس، وغرس –كخصيصة لصيقة بهذه الأمة الإسلامية كره الآلهة المزيفين، وحب الله الواحد المنزه... حكيم، خطيب، رسول، مشرع، مجاهد، فاتح للأفكار، مصلح العقائد العقلية، له عبادة لا نظير لها، مؤسس عشرين إمبراطورية دنيوية وإمبراطورية روحية، هذا هو مُحَمَّد، وعلى كل الأصعدة التي يمكن ان نقيس بها العظمة الإنسانية، أي إنسان يوازي جلالة قدره.." (المرجع نفسه، ص،56-57). ولم يكن دينييه المستشرق الفرنسي الوحيد الذي وقف موقفا مشرفا إزاء العرب والمسلمين، بحيث نجد أكثر من مستشرق فرنسي يذكر العرب والمسلمين، بكل خير. من هؤلاء نذكر – سيديو– الذي ألف كتابا بعنوان: تاريخ العرب العام. ومن خلال تصفحنا للكتاب نلمس بأن المؤلف قد امتاز بالمصداقية، ومن دواعي تلك المصداقية، أن يُضطهد المفكرون من مجتمعاتهم التي تسيطر عليها وسائل إعلام معظمها خاضع للدوائر الصهيونية التي تعمل ليل نهار من أجل تشويه العرب والمسلمين، ولعل المستشرق الفرنسي سيديو، واحد من أولئك الذين استطاعوا الإفلات من سطوة الإعلام الغربي. تناول كتابه تاريخ العرب من العصر الجاهلي إلى نهاية سقوط دولة العرب في الأندلس، وجغرافية دولتهم وحضارتهم ومدارسهم الفلسفية والعلمية والأدبية في الشرق والغرب، بإنصاف وتجرد وحيادية.

يقول المؤلف: إن للعرب والإسلام فضلاً كبيراً على أمم العالم في ميادين العلوم والثقافة والفلسفة والعمران والأدب. وعلى خلاف الكثير من المستشرقين الذين تناولوا العرب والمسلمين وتاريخهم، وأداروا ظهورهم للدور الكبير الذي لعبه العرب في الحضارة الإنسانية جمعاء، بقصد طمس آثار الحضارة العربية الإسلامية ونسيانهم وإنكار ما كان لهم من تأثير.نجد سيديو يشيد بشأنهم في كثير من فصول الكتاب، ويقدّر آثارهم تقديراً حسناً ويثني عليهم بما هم أهل له. لقد نجح (سيديو) في رسم صورة حية ساطعة لحركة الإسلام الفاعلة في جميع نواحي التاريخ والأدب والفلسفة والعلم، وحفزته دراساته الخاصة إلى اعتنائه الكبير بكل ما هو خاص بالعرب والمسلمين، وبالدور الفريد الذي لعبته الرسالة الإسلامية متجسدة بشخص الرسول الكريم مُحَمَّد (ﷺ) وصحابته الكرام والخلفاء المسلمين من بعدهم، لبعث الروح الجديدة في تقاويم الروح البشرية، وإغناء الحضارة الإنسانية بنور المثل والمبادئ العظيمة روحياً ومادياً. و في موضوع آخر يرى المستشرق الفرنسي سيديو أن النبي مُحَمَّداً (ﷺ) استطاع أن يوحد القبائل المتنازعة في عصره، وأن يزيل الضغائن فيما بينها لتجتمع على كلمة واحدة، ومن ثم تعمل سوياً على صناعة الحضارة الراقية، من أجل خير الإنسانية جمعاء (المرجع نفسه، ص،79). وللأمانة نقول بأن الفرنسيين ليسوا وحدهم الذين سجلوا انطباعات طيبة عن العرب والمسلمين، بحيث نجد أكثر من مفكر غربي يرسم صورة فيها الكثير من الاحترام والتقدير، من ذلك نذكر الكاتب البرازيلي الشهير باولو كويلو أحد أبرز الكتاب في العالم الذي لم يخف حبه وتعلقه بثقافة وحضارة العرب، مؤكدا أنه "لا يخجل من ذلك مع أنها أصبحت تهمة. لقد استلهم الكثير من الثقافة العربية والإسلامية، وأنها أسهمت في ثراء مؤلفاته. وأوضح أن اكتشافه الأول للحضارة العربية الإسلامية كان من خلال العرب المقيمين في البرازيل، ثم طور معرفته الإسلامية من خلال قراءة الأدب العربي مثل كتاب ألف ليلة وليلة إضافة للأدب الصوفي. وقال الكاتب البرازيلي الشهير إن: "الشرق هو الشرق ولن ينتهي ثقافيا لحدوث متغيرات كثيرا ما كان الغرب هو المتسبب فيها، وهو من يصنع الآن الصورة التي يريدها عن الإسلام وعن العرب وثقافتهم وحضارتهم" (يوسف الأطرش. د.ت. ص، 17). ونفى كويلو أن يكون هناك ما يعرف الآن "بشرق الرعب"، متهما الغرب وصحافته بإلصاق التهم بالشرق عموما وأضاف أن "هذه الصفات القذرة ولدت في الصحافة الغربية ومن لا يحب الشرق يعني أنه بلا قلب" (المرجع نفسه).

وفي المقابل ينبغي أن نعترف وبكل موضوعية وشجاعة، أننا نحن العرب سجلنا بعض الإسهامات فيما لحقنا من تشويه من الغرب، ذلك أننا كثيرا ما نصور المجتمع الغربي كما لو كان بيئة منحلة يسودها الانحطاط في العلاقات بين الجنسين على سبيل المثال، والسبب في ذلك يعود إلى وسائل الإعلام العربية التي تنقل صورة خاطئة عن المجتمع الغربي، فالغرب ليس واحداً وليس مطلقاً. فهو يمتاز بالتنوع والفرو

قات والتناقضات والصراعات. ومن شأن التفكير فيه كآخر لديه تجاربه الإنسانية والثقافية المتنوعة أن يقلص البعد الأسطوري الذي اتسمت به صور الغرب. ولا يمكن بالتالي تحليل الصور المتكونة عن الغرب إلا انطلاقاً من هذا التنوع. أما الحل الوحيد الممكن لهذه الظاهرة "فيكمن في تصحيح الصورة على كلا الطرفين خاصة في وسائل الأعلام والأخذ بعين الاعتبار أن للأوربيين فلسفتهم الخاصة في تشكيل حياتهم. حيث أن هناك مفاهيم أخرى للحرية الفردية المطلقة أو لعلاقة الرجل بالمرأة أما إصلاح هذه الصورة فيتطلب تبادل وفود شبابية بين العالم العربي والغربي، وأن يتم عرض صورة الفكر الأوروبي عرضاً صحيحاً. ودراسة الفلسفة الحياتية الأوروبية لا يعني بالضرورة الإيمان بها. وكما هو معروف، فإن الحرب تندلع في العقول قبل أن تصير واقعا على الأرض. ومن ثمة فإن فض الصراعات والمنازعات يبدأ بالنظر إلى الأمور بكل موضوعية ونزاهة. ومثلما كان علينا أن نطالب الآخر بتصحيح رؤيته إلينا، ينبغي نحن أيضا أن نصحح رؤيتنا للآخر. خصوصا وقد باتت ترسم لنا صورة بالغة التشوه والسوء. في الأخير نقول بأن إتيان دينيه، أو ناصر الدين دينه، قد ذهب بعيدا ليرسم للعرب وللمسلمين صورة طيبة، رغم ما لاقاه من انتقادات من طرف الأوربيين ومن غيرهم، وأعتقد أنه قد وفق إلى حد كبير في ذلك، ومع ذلك فقد بقت صورتنا في مرآة الغرب مشروخة مهتزة ومشوهة ومضللة بين أبناء الأمة العربية، بين الحكام والمحكومين، بين الرجل والمرأة. وأن نحترم ثقافة الآخر كبنية حرة مستقلة، وعلينا أن نتقاسم المهام في سبيل تصحيح صورتنا العرجاء في اللون الغربي، بإعادة تحرير البيت العربي من الداخل من صفوف التشوهات التي تسهم في رسم صورة سلبية عنا في الغرب، تحرره بالحوار الجاد.

قائمة المراجع والمصادر

1. يوسف، الأطرش. د.ت. الحضارة الغربية. محاضرات الملتقى الوطني الثالث، السيمياء والنص، بسكرة.

2. ناصر الدين ألفونس إتيان دينييه وسليمان بن إبراهيم باعمر. 2006. الحج إلى بيت الله الحرام. ترجمة وتقديم، عبد النبي ذاكر، مطبعة أنفو برينت، 12 شارع القادسية الليدو، فاس، المملكة المغربية.

3. ناصر الدين ألفونس إتيان دينييه وسليمان بن إبراهيم باعمر. د.ت. مُحَمَّد رسول الله. ترجمة عبد الحليم محمود، مُحَمَّد عبد الحليم. دار الكتاب اللبناني، بيروت.

4 . يوسف الأطرش. د.ت. الحضارة الغربية، محاضرات الملتقى الوطني: السيمياء والنص.